ماستر 1 - أدب شعبي - مقياس اللهجات - محاضرة -

د. محمد بن عبد الواحد.

الموضوع: اللهجات في الآداب الشعبية العربية -

- تاريخ الآداب الشعبية العربية:

لا شكّ أنّنا نفتقد تاريخا منهجيّا للأدب الشعبيّ في العالم العربي، على غرار ما تمّ من تأريخ للأدب الفصيح، بدءا من العصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث؛ وهذه الدّعوة تأتي تدعيما للقراءة المكتملة لتاريخ آداب العربية وإبداعات شعوبها. وعلى الرّغم من غياب التوثيق والتّدوين للشعر الشعبي منذ القدم في حالات كثيرة ولأسباب عديدة، فإنّ المدوّن منه إلى الآن والمتوافر بين أيدي الباحثين لهو جدير بالتّوثيق في موسوعة مكتملة، تبدأ من أقدم النّصوص وتنتهي بأحدثها، تشمل ما هو مجهول المؤلّف وما هو معلوم.

ويمكن تقسيم الأمّة العربية إلى مناطق كبرى، بحكم وحدتها المكانية وتقارب لهجاتها وعاداتها وتقاليدها، وأيضا إبداعاتها الشعبية، وهو ما يسمّى الكيانات الأسلوبية الشعبية المعتمدة على وحدة المكان الجغرافي، ونوع النّصوص مع اختلاف المتشيئين، أو وحدة المكان والمتشيئ (المبدع) مع اختلاف نوع النّصوص بهدف الكشف عن مناطق تركّز الخصائص الأسلوبية والمناطق الانتقالية بينها ومناطق الجزر الأسلوبية. (1)

---

(1) د. سعد مصلوح، من الجغرافية اللغوية إلى الجغرافية الأسلوبية، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1994، ص 29.

لقد اقترح الدكتور سعد مصلوح عمل خرائط أسلوبية على غرار الخرائط اللغوية بهدف استقصاء جوانب التنوع الأسلوبي في العربية المعاصرة لخدمة مجال الإبداع الشعبي على صعيد اللغة وأساليب الأداء الشعبية ؛ وقد ركز على ضرورة القيام بهذا العمل لعدة اعتبارات تتمثل فيما يلي :

- أن الأقاليم العربية ذات وحدة جغرافية واحدة ، فلا فواصل بين أراضيها مما أتاح التواصل الدائم بين شعوبها ، سواء كانوا بدوا أم حضرا ، ريفا أم مدنا ، وساهم في صهر الإبداعات الشعبية لتكون معبرة عن روح الشعوب في هذه المناطق .

- أن هذه الأقاليم تمثل التجمعات البشرية الكبرى في العالم العربي ، ولا شك أن هناك تمايزا في إبداعات هذه المناطق بين المدن والقرى والبدو والحضر ، بل وبين القبائل بعضها البعض وأيضا بين المذاهب الدينية ، ولكن هناك عملية واسعة من التلاقي الروحي والفكري وتشابه العادات والتقاليد .

- لا شك أن هناك جذرا لغوية ، أي تختلف لغويا عن اللهجات العربية الشائعة في هذه الأقاليم ، فواحات مصر لها لغتها الخاصة بها ، وأهل النوبة جنوب مصر لهم لغتهم الخاصة ، ومناطق الأمازيغ في المغرب العربي والأكراد في شمال سورية والعراق لهم لغاتهم الخاصة ، ولكن دراسة مظاهر الفولكلور اللغوية وغير اللغوية تقدم صورا عن حجم التأثر بالإبداع في الإقليم المركزي القريب منه ، وأيضا من الثقافة العربية والإسلامية بشكل عام .

فهذا العمل الموسوعي سيساهم في تطوير العربية الفصحى المعاصرة التي استفادت كثيرا من أبحاث العاميات المحلية بهدف التقريب بين اللهجات وتخفيف وطأة الخلافات النطقية والدلالية بما يمكن من صهرها في لغة مشتركة (1)

وكذلك صهر اللهجات المحلية ودمج تعبيراتها في نثر العربية المعاصرة : فمن الخطإ الظن أن العربية الفصحى كانت هي السائدة قبل الإسلام وبعده ثم انحرفت بعده إلى اللهجات ، فقد كانت الجزيرة العربية قبل الإسلام تموج بشتى اللهجات المتباينة ...

ولكن اللغويين العرب لم يصفوا لنا تلك اللهجات العربية القديمة وصفا دقيقا كاملا في كثير من الأحيان ، وذلك لانشغالهم في المقام الأول بالعربية الفصحى (2) وما دراسة الإبداعات الشعبية إلا تطويرا ومواصلة لدراسة اللهجات العربية في عصور مختلفة .

ولا شك أن هذا المشروع جهد عظيم ، يستلزم إرادة علمية ، وتضافر جهود الباحثين والتنسيق بينهم من أجل الوصول إلى تاريخ كلي للآداب الشعبية العربية ، بما يعطي صورة شاملة عن وجدان الأمة العربية الجمعي في مراحل تاريخها ، وعن تطور لغة الإبداع الشعبي ، وكيفية تحور الكلمات الفصيحة إلى نطق عامي ، والدلالات المتولدة في الاستخدام من قطر إلى آخر ، بما يخدم قواميس اللهجات العربية بالكثير من المفردات والتعبيرات الواردة في الآداب الشعبية .

3 - كما أن هذا يعضد جهود اللغويين العرب في استقرائهم وتتبعهم للهجات المختلفة خاصة على مستوى الإبداع شعرا وأغاني وقصصا ..

---

1) - د. محمد المنجي الصيادي ، التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 1 ، 1981 ، ص 511 .

2) - د. رمضان عبد التواب ، بحوث ومقالات في اللغة والأدب ، مكتبة الخانجي القاهرة ط 2 ، 1988 ، ص 263

* ـ لغة الشعر الشعبي المعاصر:

يُراد بالشعر الشعبي المعاصر ذلك الشعر العامّي المبدع في أقطار وأقاليم العربيّة على اتّساع مساحتها الجغرافية، وهذا يتناول مُبدعي العربيّة باللّهجات العامّيّة؛ وبعضهم نال الكثير من الحظوة والشّهرة لدى الجماهير؛ ولكن نظلّ هناك جُملة من إشكالات تعترض الشّعر العامّي في العالم العربي، يمكن إجمالها فيما يلي:

1) ـ الإمعان في استخدام المفردات والتّراكيب العامّيّة الشائعة على الألسنة، والإمعان في كتابتها وفق منطوقها. وتكفي مُطالعة نصوص العامّيّة في أقطار عدّة ليبدو الواقع المؤلم الذي باتت عليه؛ فبعض شعراء العامّيّة في مصر ـ مثلا ـ يكتبون القاف ألفًا، ويُخفون المدّ بالألف، وتكتب الثاء سينًا والذّال زايًا، والضّاد ظاءً، ويمعنون في التعبير العامّي ـ المُبتذل أحيانًا ـ بهدف جذب المتلقّين ... وفي الخليج البعض يُسجّل القاف غينًا أو شينًا، والجيم ياءً (في النطق الحضري) والغين قافًا، والظاء ضادًا، والضاد ظاءً، وغيرها من المفردات التي تُكتب كما تُنطق دون مُراعاة خصوصية الكتابة الشّعريّة؛ أمّا الشّعر العامّي في المغرب العربي فيكاد لا يُفهم كتابيًّا بحكم أنّ العامّيّة في المغرب غير مألوفة سماعيًّا في المشرق العربي، كما أنّ فيها مزيجًا من المفردات الأمازيغيّة.

2) ـ بناءً على هذا فإنّ الشّاعر العامّي بات محصورًا في دائرة إقليميّة محدودة تتّسع على أقصى تقدير إلى القطر أو الإقليم الجغرافي، فلا يُفهم الشعر العامّي العراقي في مصر، ولا العامّي المغربي في الجزيرة العربيّة سواء كان شفاهيًا يُلقى أو مكتوبًا يُقرأ، فقد طرأ الكثير من التّبدّلات على اللّسان العربي في اتجاهه المختلفة.

3- إنّ الشّعر العامّي المعاصر بات مُهتمًّا بقضايا مُجتمعيّة وإنسانيّة كبرى، وهو ما يُعزّز دوره التّنويري والإثرائي، ولكن يظلّ انتشاره محكومًا بمدى فهم اللّهجة المُصاغ بها.

وعلى هذا الأساس وجب على شعراء العامّيّة المعاصرين أو يتوافر لديهم وعيٌ بالبعد القومي العربي في تلقّي الشّعر العامّي، وتذوّق جماليات اللّهجات العربيّة المتعدّدة ومفردات ثقافتها المحلّيّة. وكلّ هذا يساهم في تقارب الثّقافات الشّعبيّة المحلّيّة التي هي بلا شكّ رافد للثّقافة العربيّة الأمّ، دون استعلاء لثقافة أو لهجة على سائر اللّهجات.

ومن هنا يستلزم أن يصوغ المبدع العربي إبداعاته مراعيًا ما تسمّى العربيّة المُفصّحة المعاصرة، التي باتت متداولة بشكل واضح في القنوات الفضائيّة والإذاعات المختلفة، حيث يحرص متكلّموها على انتقاء الألفاظ القريبة من القاموس العامّ المتداول على الألسنة؛ ولا مانع من إيراد مفردات وتعابير محلّيّة ونطق محلّي، على أن يُشار إلى معانيها في هوامش النّصوص المكتوبة.

ولقد كان هذا الوعي واضحا لدى العديد من شعراء العامّيّة العرب الّذين حملوا ريادة شعر العامّيّة وجعلوه في مكانة ساميّة تجاور الشّعر الفصيح.

وهذا أنموذج من الشّعر العامّي المهذّب للشّاعر المصري "محمود الشاذلي" يقول فيه:

عشنا أمّا شفنا النّجوم
طالعة في عزّ الظّهر
ولا نومة بعد اليوم
لمّا القيامة تقوم

ويغور جحيم القهر
ويقيم شبابك يا مصر
الجنة ونعيمها

ويقول أيضا :

في حجر الشمس ... انعس كسلان
من سرحة فكر تعصبني
تنقح في دماغي تصحصحني
وتحن عليّ في برد الصيف
تفرش لي ظله بتغزلها .
بحنين وبراح
تتكسف الشمس تسمعني
جرس المرواح
وتقول لي بهمس :
تصبح على خير (1)

---

(1) - محمود الشاذلي ، من خيمة في التحرير ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، 2011 ، ص 16 .